رواية

ظهر فجأة... ثم اختفى

الكاتبة إسلام صادق

إسلام صادق

الفقراء: رواية

سنة:٢٠٢٣

*جميع الحقوق محفوظة للكاتب ولا يجوز نسخ أو نشر الكتاب أو أخذ أي اقتباس دون أذن خطِّي من الكاتب وإلا سيتعرَّض صاحبه للمساءلة قانونية.

الإهداء

إلى كل الفقراء الأغنياء، إلى كلِّ فقيرٍ لا يدرك مدى فقره، إلى كلِّ من ظنَّ أنَّ الفقر فقط جوع، أهدي هذا الكتاب.

((على أرصفة الشَّوارع ينامون، وعلى أعتاب المساجد يقفون، أمعاؤهم خاوية وبطونهم فارغة، لم يجدوا ما يسدُّ رمقهم.

يستلقون في الأزقَّة، هذه صورة عن الفقر أما الباقي فهو كثير))

ليس الفقر فقط جوعاً، الفقر أن تفتقر الأمان أن تفتقر الوطن أن تفتقر العائلة والسَّند))

إسلام صادق

٢٠٠٢/٤/٢ باريس

تجوَّلت كارمن الفتاة ذات العشرة أعوام في أحد الأزقَّة في ضواحي العاصمة الفرنسيَّة باريس بحثاً عما يسدُّ جوعها، لم تعد تستطيع الحركة من شدَّة الجوع، لقد ملَّت نسق حياتها هذا. كل يوم تنبش المهملات بحثاً عن مخلَّفات أحد المطاعم كي تطعم نفسها، فشقيقها يعمل ولا تراه إلا قليل، فيتوجَّب عليها إن تأخَّر أن تبحث هي عن طعام، كم تراودها أحلامٌ بأنَّها تنام على فراشٍ من حرير وتأكل أشهى المأكولات، تحمد الله أنهم في الصيف فالشِّتاء الباريسيّ قاسٍ على الفقراء. باتت تكره جميع الأغنياء - هذا ما تربَّت عليه مذ كانت صغيرة-، تتمنَّى لو تنتقم منهم، حياتها قاسية جدَّاً، فكم مرَّةً هزء منها المارّة وضربوها، وهذا قال لها:

-أيَّتها الشَّحّاذة الصغيرة.

وذاك قال:

-موتي جوعاً.

يا ما أقسى قلوبهم أفلا يضعون أنفسهم مكانها؟، أولم يأمرهم الله بالصَّدقة والزَّكاة والرَّحمة، ف لماذا لا يطبّقون أوامر الله؟

شارفت الشَّمس على المغيب ولم تجد شيئاً تأكله كيف ستعود إلى البيت وهي خالية الجيوب من المؤكَّد أنّ شقيقها عاد إلى المنزل دون طعام لأنَّ صاحب العمل طرده، -كما يحصل كلَّ مرَّة-، عادت إلى البيت المهجور تجرُّ خيبتها وراءها قالت مكلّمةً نفسها في حزن:

-ماذا سنأكل اليوم لا نستطيع البقاء دون طعام يا رب ساعدني. الله رحمها فلم يتركها دون طعام ها هو نادل المطعم يلقي مخلّفات طعامٍ داخل المهملات، فتهلّلت أساريرها وركضت نحو السَّلة بعد أن دخل النَّادل إلى المطعم قالت في فرح:

-يمممم هذه الأطعمة ستسدُّ جوعي وأخي هذه الليلة.

حملت بقايا الطّعام وأسرعت إلى منزلها الخرب، كانت سعيدة، وهي تسير بسرعة فقد حلَّ الظّلام وقد تضِيع عن البيت وهي تخاف الظُّلمة فلا أمان في الليل خاصَّةً حينما يكثر اللصوص وحوادث الخطف والقتل فهي لا تزال تذكر تلك الحادثة جيّداً حين وُجدِت شابَّة مقتولة في أحد الأزقّة المهجورة، ومن ذلك اليوم باتت تخاف أن تكون وحدها، فهناك أناسٌ لا يعرفون الله ولا الرحمة، كانت تمشي وهي تتمتم:

-سيفرح أخي ويفخر بي ولن يوبّخني كالعادة.

ما أجمل البراءة! تلك الطّفلة المسكينة تمشي وحدها في الليل ليس معها سوا الله يحميها، كم تُحزن تلك الطِّفلة وكم يوجد أطفال مثلها.

ظلَّت تسير فترة وتقترب من البيت، لكن ما حصل لم يكن في الحسبان:

سقطت كارمن وتمزَّق ثوبها، وعندما حاولت الوقوف كانت مجموعة من اللصوص قد شكلت دائرة تطوِّقها كالسلسلة، بدَت عليهم الشّراسة خافت كثيراً، وتقدّم رجلٌ طويل القامة له عضلات قويّة وقيَّد ذراعيها بيديه ممّا جعلها تتأوّه وتقول في خوفٍ والعبرات تخنقها قالت في تلعثم:

-ماذا.. تريدون.. منِّي...؟

أفلتها الرجل ودفعها بقوَّة ف ارتطمت بالحائط وقال وهو يلوّح لها بسكّين حادَّة:

-ألقي ما معك من طعام على الأرض وارحلي من هنا في الحال.

تساقطت العبرات الحارَّة على وجنتيها من فرط الخوف فلا أحد تعرَّض لها من قبل بهذا الشّكل قالت محاولةً استعطاف الرجل وهي موقنةٌ أنّ عملاقاً كهذا لن يلين:

-لا أرجوك إنّها لأخي لم نذق شيئاً منذ أيَّام، وقد نموت من الجوع.

لطمها الشّابّ بكفّه اليمنى وأخذ الطّعام وهو يقول في سخرية:

-فلتموتي جوعاً أنت وأخوك إذاً، ثمّ استدار لعصابته وهو يلوّح بيده أن اتبعوني.

بكت كارمن بحرقة على حظّها السيء وعلى السّاعة التي فكّرت فيه بسلك هذا الطَّريق.

ظلَّت مستلقية على قارعة الطَّريق وشيئاً فشيئاً غطّى ستار معتمٌ عينيها واستسلمت لسباتٍ عميق.

.....

-هيّا آنسة ريحان.

-حسناً، أنا قادمة.

خرجت الآنسة ريحان مع المربِّية في نزهة، كانت تلك المربِّية كلَّ عائلتها بعد موت والديها. هي تملك من المال الكثير، تعيش حياة الأميرة ولكنَّها يتيمة ووحيدة. تجوَّلت بالعربة عبر الشَّوارع الباريسيَّة التي تزيَّنت على كلتا الطَّرفين بالحوانيت ومحلَّات العطور والملابس والكتب، كما أنَّ باريس مليئة بالمتاحف والمسارح والمعالم الأثريَّة. بسبب عمل أبيها اضطرت وعائلتها للسَّفر من تونس إلى باريس وبعد موت والديها بقيت في باريس.

في طريقهم مرُّوا بالمعلم الأثريّ المشهور برج إيفل الذي يبلغ ارتفاعه ٣٢٤ متر، يوجد في القرب من نهر السّين، وقد أنشئ من قبل غوستاف إيفل ومعاونيه.

حفظت هذه المعلومات عن ظهر قلب.

بينما هي تنظر عبر نافذة العربة، انتبهت إلى جسدٍ هزيل ملقى على قارعة الطَّريق دون وعيٍ صرخت على السَّائق الذي لم ينتبه لوجود الجسد:

-توقَّف! أوقف العربة حالاً.

فزعت المربّية لهذا الصَّوت:

-ما بك آنستي هل حصل شيء؟

-فاتن اتبعيني.

نزلت إلى أمام العربة حيث كانت فتاةٌ تبدو في التَّاسعة من عمرها ملقاة على الأرض ويبدو عليها الهزال والتَّعب. حملتها ريحان بين ذراعيها وهي تقول لفاتن:

-فاتن سنأخذها إلى المنزل.

-حاضر آنستي.

ركبت العربة والفتاة بين ذراعيها. يال المسكينة يبدو أنَّها جائعة ومتعبة جدَّاً، يال الفقراء المساكين.

.....

استيقظت وحدَّقت في السَّقف، ثمَّ تلفَّتت حولها:

-أين أنا؟

استرجعت حوادث الليلة الماضية، لقد تعرَّض لها مجموعة من اللصوص ومن ثمَّ نامت على الأرض ولا تذكر ما حصل بعدها.

قالت مخاطبةً نفسها:

-ياه ما هذه الغرفة الجميلة هل أنا في حلم.

يبدو أنَّ حلمها قد تحقَّق في أن تصبح غنيَّة كانت تحلم حينما سُمِع صوت صرير الباب وهو يفتح وقد ظهرت من وراءه آنسة غاية في الجمال والبشاشة قالت لها برقَّة:

-استيقظت أخيراً؟ هل أنت بخير؟

مازالت مدهوشة حين قالت الآنسة:

-لا بأس عليك ارتاحي الآن.

أخيراً حرَّكت البنت فمها لتقول في عجب:

-أين أنا ومن أنت يا آنسة؟!

-أنا اسمي ريحان وأنت في منزلي، وأردفت: حان دورك ما اسمك؟

-اسمي كارمن.

-اسمك جميل ما معناه؟

-كارمن تعني الأنشودة العذبة والجميلة.

-رائع أهلاً بك يا كارمن.

أحبَّت الآنسة ريحان كارمن كانت تعيش وحيدة وها هي كارمن تأتي وكأنَّها أخت ريحان الصَّغيرة.

انتبهت كارمن لشرودها فقالت لها:

-ما بكِ؟

-لا شيء.... كم عمرك يا كارمن؟

-أنا عمري عشرةُ أعوام وأنتِ؟

-أنا في السادسة عشرة من عمري أكبركِ بخمسة أعوام.

بعد صمتٍ قصير قالت ريحان وهي تسحب كارمن من يدها:

-هيَّا يا كارمن تعالي لتلبسي ثوبك الجديد فهذا الثَّوب تمزَّق ويجب أن تأكلي شيئاً ما رأيك أن نأكل معاً؟

انصاعت كارمن لطلب ريحان فهي حقًّا تشعر بالجوع الشَّديد.

.....

كانت تكره الأغنياء ولكن ريحان كانت فتاةً لطيفة رغم غناها، ظنَّت أنَّ جميع الأغنياء أشرار وطمَّاعون، هذا ما قاله شقيقها بيير، دائماً ما كان يحثُّها بعدم الاقتراب منهم، وألا تفكِّر مهما حصل أن تمدَّ يدها إليهم ولو كانت حياتها على المحكّ، لكن هذه الفتاة غير كلِّ الأغنياء، أحسنت إليها وكانت لطيفةً جدًّاً.

جلستا في حديقة منزل ريحان على مقعدٍ خشبي.

كانت ريحان من بادرت بالسُّؤال:

-كارمن هل لديك عائلة؟

نظرت كارمن إلى سحنة ريحان ولمست فيها شيئاً من الحزن:

- نعم أمِّي تعمل في نيويورك وتزورنا كل عام وأخي، وأنت؟

-أنا لديَّ فاتن فقط.

لم تسألها من فاتن بل قالت:

-أتعرفين أنا أغبطك كثيراً تملكين أشهى الطَّعام وأجمل اللباس وتنامين على فراش من حرير كم أتمنَّى أن أكون مثلك يوماً ما.

-وهل تظنِّين أنّي سعيدة؟

أجابت كارمن في استغراب:

-ألستِ كذلك؟

-لا يا عزيزتي لست سعيدة أنا مثلك فقيرةٌ أيضاً.

-ماذا هل تسخرين منّي؟

-أبداً أنا فقيرةٌ من نوعٍ آخر، أنا أفتقر للعائلة وأنت لديك عائلة كلٌّ منّا يفتقر لشيء معيَّن هل تظنّين أنّ المال قد يعوّضني عن سعادتي مع عائلتي؟ لا يا كارمن أنا أتمنَّى أن تعود أمي إلى الدُّنيا مقابل ثروتي وأموالي، ثمَّ هناك شيءٌ في ضميري يؤنِّبني لا أستطيع العيش بصفاء وهدوء.

بدأت العبرات تتساقط تباعاً على وجنتي ريحان بغزارةٍ إزاء صمتِ كارمن.

لم تكن تدري أنَّ وراء ابتسامة ريحان هذا الألمَ المرير.

-أنا أفتقر للدفء يا كارمن.

-الدفء؟

-أجل، عندما كنت صغيرة جلست أمّي بجانبي وقالت لي في ليلة باردة:

-أتدركين ما هو الدفء؟

أجبتها ببراءة الأطفال:

-أجل، إنَّها المدفأة.

فضكت.

أدركت اليوم ما كانت تقصده، الدّفء كان حضنها، ولكن أدركت هذا بعد فوات الأوان، تنهَّدت بحرقة: أجل.

-أنا آسفة، لم أكن أعرف ذلك، سامحيني.

-لا بأس عليك كارمن.

-شكراً.

ظلَّ الحزن مخيِّماً على كلتا الفتاتين، لكنَّه لم يدم طويلاً، فسرعان ما شرعت الفتاتان بالضَّحك والحديث سويَّةً.

-كارمن ماذا تفعلين؟

توقَّفت كلتاهما عن الضَّحك لتعرفا مصدر الصّوت الذي نادي كارمن.

-بيير!

-أيَّتها الشَّقيّة.. بحثت عنك طويلاً أين كنت؟

ثمّ التفت إلى ريحان قائلاً:

-ومن هذه التي معك؟

-بيير ما بك؟

-ما بي؟ ألم أقل لك لا تقتربي من الأشرار أمثال هذه الفتاة.

- بيير لا تقل هذا أرجوك... الآنسة ريحان لطيفة يا بيير، استدارت إلى جوري معتذرة:

-آسفة اعذريه يا ريحان إنَّه أخي بيير وهو غاضبٌ قليلاً.

ابتسمت ريحان متفهّمة لكنَّ بيير أسرع وأمسك بكفّ كارمن وشدَّها وهو يقول:

-هيَّا يا كارمن سأريكِ في البيت.

-بيير دعني أودِّع الآنسة أرجوك.

-قلت لك لن أدعك تقتربين منها مرَّةً أخرى هي قد تخطفكِ.. هيَّا.

لكنَّ ريحان وقفت لتقول في شجاعة:

-أرجوك يا سيِّد لا تقل هذا كارمن مثل أختي وأرجوك أن تدعها لأنَّها متعبة جدَّاً.

لم يصغِ بيير إليها بل غضب منها وسحب كارمن التي قالت:

-ماذا تفعل؟ بيير أرجوك.

لكنَّ قوَّته جعلتها تنصاع وراءه مخلِّفةً الآنسة ريحان أرضاً دون أن تعتذر إليها.

مرَّ الوقت سريعاً وعندما شارفا على الوصول إلى المنزل، كان الليل يرخي سدوله، واستطاعت أن تفلتَ من أخيها وتهرب إلى أبعد مكانٍ وهي غاضبةٌ منه كثيراً.

سارت طويلاً وبسرعة وهو يناديها بسخط:

-توقَّفي أين تذهبين يا حمقاء.

استطاعت أخيراً الإفلات منه، لكن المصيبة أنَّها لم تفكّر أين تذهب ويبدو أنَّها ابتعدت كثيراً عن البيت، مشت في الأزقَّة الموحشة لعلّها تهتدي إلى البيت، وللأسف كانت تسير بلا فائدة. قالت لنفسها في أسف:

-يا ليتني لم أترك أخي في هذا الليل كيف أعود إلى أمّي الآن؟

-أنت يا صغيرة هل أنت ضائعة؟

التفتت إلى الرّجل الذي وقف إزاءها بقامته الطَّويلة وعضلاته القويَّة أجابته وهي تمشي دون النَّظر إليه:

-أجل يا سيِّد، أنا ضائعة ولكنّي وجدت منزلي.

قال وهو يحاول طمأنتها:

-لا تقلقي يا صغيرتي أنا أعرف الشَّوارع جيِّداً ويمكنني أن أوصلك إلى المنزل، لكن الوقت متأخر فما رأيكِ أن آخذك إلى مكانٍ تبيتين فيه وفي الصَّباح تذهبين لمنزلك؟

فكرت قليلاً إنَّه رجل غريب ولن تذهب معه، لكنَّها ضائعة و

كان عرض الرَّجل مغرياً فهي لن تنام في العراء، وافقت كارمن.

مشيا طويلاً، حتَّى أنَّ كارمن أحسَّت بالتَّعب الشَّديد والنُّعاس، قالت كارمن وهي تترنَّح في مشيتها:

-يا سيّد هل مازال المكان بعيداً... أشعر بالتَّعب الشَّديد.

أجابها بلهجةٍ ساخرة وهو يرفعها ليضعها على كتفه:

-لا بأس عليكِ يا فتاة نامي نوماً هادئاً سأحملك بقيَّة الطَّريق لم يبق الكثير.

سمعت في صوته نبرةً مألوفة لم تتفرَّس ملامحه بدقَّة لأنَّ الظّلام حالك لكنَّها انتبهت إلى نبرته المألوفة وهي تسدل جفنيها لتنام بهدوء.

.....

فتحت عينيها في الغرفة المظلمة الخالية من أيّ نور، تلفَّتت حولها وحينما ألفت عيناها الظّلام تبيَّنت أنَّها في غرفة صغيرة تفوح منه رائحة العفن وكان هناك سرير وأريكة صغيرة، سمعت أصواتاً تنبعث من الغرفة المجاورة، ألصقت أُذنها على الباب كي تسمع وصارت تنظر عبر ثقبٍ صغير في الباب فأبصرت الرَّجل ذاته الذي أحضرها، في البداية ساد سكون قصير ثمَّ علا صوت رجلٍ يقول:

-سيّدي لماذا أحضرتها إلى هنا؟

-أيّها الغبيّ سنجني من وراءها ثروةً كبيرة سنبتزّ أهلها ثمَّ نقتلها.

-لماذا نقتلها؟

-أنت حقَّاً غبيّ، هل نبقي عليها حتَّى تخبر الشّرطة.

اتّسعت عيناها في ذعرٍ وتسارعت دقَّاتُ قلبها، لا شكَّ بأنَّها هي المقصودة، تذكَّرت أين سمعت نبرته المألوفة إنَّه زعيم العصابة التي سرقت طعامها كيف لم تنتبه إلى ملامحه!؟، اقتربت خطوات من الغرفة

التي تقبع فيها، فأسرعت إلى مكانها، فُتِح الباب وسُمِع صوت صريره المزعج وبان من خلفه الرَّجل ذاته، الطويل ذو العضلات، نظر إليها في سخرية ثمَّ قال في صوت الأطفال:

-لا تقلقي يا صغيرتي دقائق وتختفين عن وجه الأرض، يجب أن تشكريني لأنِّي سأريحك من الحياة القاسية.

وأطلق ضحكةً شرّيرة هزَّت قلب المسكينة كارمن.

عندما خرج بكت كارمن في صمت، إنَّها خائفة بشكل لا يوصف، خائفة على مصيرها ربَّما يقتلونها، إنَّهم أشرار ولن يتوانوا عن أي عملٍ قد يجلب لهم المال والثَّروة.

دعت الله في صمت وهي تبكي وتندم على اللحظة التي تركت فيها شقيقها والآن من يهتمُّ لأمرها، إنَّها فقيرة ولن تهتمَّ الشُّرطة الفرنسيَّة لأمرها فشارعهم لا يقربه إلا المشرَّدون، تذكَّرت كلمات أمِّها حينما أخبرتها بماضيها المؤلم وهي تقطع البحر على قارب الموت، أخبرتها والدتها أنَّ والدها وأختها كايلا التي تكبرها ربَّما سنتين والتي تشبهها شبهاً كبيراً، قد غرقا في البحر ومن رحمة الله بها أن نجت وبيير، أنقذني يا رب، نادت بكلِّ حرقة، تخرج عبارة ’’ يا رب’’ من بين شهقاتها المكتومة.

-هاك هذا الطَّعام يا فتاة.

دخل فردٌ منهم ورمى إليها بقطعة خبز، عندما نظرت إليه كادت تموت رعباً أمام نظراتها التي طوَّقت رقبتها، ينظر إليها بعينين مدهوشتين ومرعبتين كأنَّه وجد كنزاً.

بالفعل عيناه تنظر إلى القلادة الذَّهبيَّة التي تتدلى على رقبتها، إنَّها ذكرى من ريحان التي أخبرتها أنَّها أثمن شيء عندها.

إنَّه يقترب!

ماذا يريد أن يفعل؟!

.....

تجوَّلت هذه المرَّة وحدها، كانت تنوي الذَّهاب إلى مكان ما ولكن لا تعرف أيّ مكان.

قادتها قدماها نحو الجسر، ما إن وقفت هناك حتَّى خفق قلبها بقوَّة وسرت رعشة غريبة في جسمها. المشهد نفسه يتكرَّر!

مشهد الفتاة الصَّغيرة التي زُلِقت رجلها ووقعت من فوق الجسر، أسرعت بكلِّ ما أوتيت من قوَّة وركضت نحوها لتمسكها، نسيت كلَّ شيء حولها وهرعت إليها حتَّى تمكنت من إمساك الفتاة، ابتسمت في ارتياح وقبَّلتها قائلةً:

-الحمد لله، لكن يا صغيرتي لا تبتعدي عن ماما، هذه المرَّة كنت موجودة ولكن المرةَّ القادمة قد لا أكون.

ضحكت الطّفلة في مرح، وشكرت ريحان، ثمَّ أفلتت من حضنها وركضت إلى أمِّها التي استقبلتها بالأحضان والقبلات.

دمعت عيناها، هي تقف ذكرياتها التي حرقت قلبها وأشعلت الألم في صدرها، عادت بذاكرتها إلى عشر سنوات مضت وتقف في هذا المكان ذاته تنظر إلى أخيها في نفاد صبر:

-أخي لقد تأخَّرت صديقتي.

-ريحان لا تقلقي ستأتي قريباً.

وقفت ريحان أمام شقيقها الكبير تنتظر في حماس، بعد مرور خمس دقائق لاح لها من بعيد فتاة تركض، كانت هي من تنتظرها.

ركضت ريحان نحوها وهي تصيح:

-كايلا وأخيراً...

-ريحان لقد جئت.

استدارت نحو أخيها وقالت له:

-أخي ما رأيك أن تعود بعد ساعة وتأخذني سنذهب إلى الحديقة.

-حسناً بعد ساعة؟ استمتعي بوقتك.

لوَّحت ريحان لشقيقها ثمَّ سحبت كايلا من يدها وهي تبتسم:

-كايلا هل أحضرت دميتك.

-أجل انظري ما أجملها.

-ياه جميلة.

-وأنت أين دميتك لا أراها.

لم تكن الدمية بيد ريحان تلفَّتت هنا وهناك، لم تجدها، شعرت بالحزن ظنَّت أنَّ أخاها قد أخذها معه دون أن يشعر، وبدأت بالبكاء، حاولت كايلا التَّخفيف عنها:

-لا تحزني سنلعب بلعبتي.

وفي تلك الأثناء مرَّ أحد الشبَّان الأشقياء لم يجد شيئاً يتسلَّى به فراقه بكاء الطّفلة سألها بعد أن رسم ابتسامة مصطنعة على ثغره:

-ما بك لماذا تبكين يا صغيرتي؟

أجابته ريحان وهي تكفكف دمعها:

-لقد عاد أخي بدميتي إلى البيت بالخطأ.

فكَّر أن يتلاعب بها فقال وهو يستدير منصرفاً:

-إنَّها فوقك يا صغيرتي.

نظرت فوقها فلم تجد سوا سور الجسر الذي يطلُّ على نهر السِّين.

استدرك قائلاً فوق السُّور.

-حقَّاً، هل يمكنك إحضارها لي يا سيِّد.

هنا انسحب مبتعداً ورفع يديه وقال:

-أنا؟! يجب عليَّ الإسراع سيعاقبني سيِّدي.

بعد انسحاب الشَّاب لم يبق أحد كان المكان خالياً في هذا الوقت حتَّى أن بعض المارَّة ظنُّوا أنها مجنونة فلا دمية على السُّور، فكَّرت كيف ستجلبها السُّور عالٍ وهما قصيرتان لكن خطرت في بالها فكرة قالت ل كايلا:

-احمليني وأنا سأجلبها ما رأيك؟

-ماذا. هذا خطير وأنت ثقيلة.

-لا تقلقي فقط ارفعيني قليلاً وأمسكي بي ولا تتحركي سننجح.

لم يبد على كايلا الاقتناع لكنَّها استسلمت في النِّهاية لإصرار صديقتها.

حملت كايلا ريحان بحذر وأمسكتها بقوَّة.

-وصلت!

تطلَّعت هنا وهناك لم تكن هناك دمية! ما معنى هذا، تطلَّعت هنا وهناك لا شيء.

نظرت إلى الأسفل حيث النَّهر هل وقعت دميتها؟ مدَّت رأسها أكثر، وهنا شاء الله أن تنزلقَ رجل كايلا فأوشكت ريحان على السُّقوط لكن كايلا تمسَّكت بها جيِّداً وحاولت سحبها حاولت أن تصرخ طلباً للمساعدة لكن لا أحد في الشَّارع فقد ذهب الجميع لمشاهدة العرضٍ الذي سيقام في

السيرك وكانتا ستذهبان لحضوره، لم تحتمل كايلا ثقل ريحان فسقطتا في النَّهر وجرفهما إلى بعيد.

استيقظت ريحان بعد غيبوبة دامت يوماً كاملاً فقد ابتعدت كثيراً عن المدينة، وكانت في بيت أحد القرويِّين الذي أخبرها أنه رآها على ضفَّة النَّهر وهي فاقدة للوعي، سألته بعد أن استردَّت وعيها عن كايلا فأخبرها القرويُّون أنَّهم وجدوا جثَّة فتاة صغيرة أجنبيَّة، وصفوها لها فبكت ريحان كثيراً على صديقتها التي فارقت الحياة وطلَّ هذا الحزن والذنب يؤنِّب ضميرها حتى الآن، عادت إلى المدينة فأخبرتها مربِّيتها أنَّ أخاها ترك المنزل بعد غيابها.

.....

-آآآه.

ضربت كارمن الرَّجل على رأسه بعصا غليظة فسقط على الأرض متأوِّهاً بعد أن حاول أخذ القلادة منها.

أسرعت نحو الباب أطلقت العنان لساقيها ولم تكترث ب شيء فكَّرت أنَّها ستركض ولن تتوقَّف، لم تستدير بل ركضت إلى الباب وفتحته ولم تنظر خلفها وهم ينادونها ويتوعَّدونها ساخطين، جرَت وهي لا تعرف أين تذهب ولكن لحظِّها إنَّها طرقٌ مسدودة.

وقفت أمام الجدار عاجزةً، لقد انتهى الأمر وأمسكوا بها.

تقدَّم شابّ طويل إليها وقال وهو يشدُّها بغضب:

-أيَّتها الغبيَّة كيف تفعلين هذا هيَا اخلعي هذه القلادة وسنتخلَّص منك في الحال.

حاولت الإفلات من قبضته لكن دون جدوى شعرت بالخوف، سيقتلها.

خلع القلادة ثمَّ رفع سكِّيناً لها نصلٌ حادٌ وابتسم ابتسامة خبيثة.

كاد السِّكين أن يخترق قلب كارمن لولا:

-يااااااه ابتعد عن الفتاة في الحال.

وقف وكأنَّه فارس بسيفٍ قاطع رغم أنَّ لباسه قديمة ولم يكن يحمل سوا عصاً غليظة.

أبعد اليدين القاسيتين عن كارمن وشجَّ رأس الرجل وخطف كارمن والقلادة من يده.

زمجر الزَّعيم في غضب قال وهو يمسح دماءه:

-ماذا فعلت أيُّها الأحمق سترى، هيَّا اتبعوه.

ركض الشَّاب بسرعة واختفى عن أعين العصابة وهو يحمل كارمن.

أغمي عل كارمن فوضعها على سرير في شقَّة بالية وانهار هو على الأرض جانب السَّرير.

.....

حين استيقظ، خرج ليجلب بعض الخبز من عند صديقه الخبَّاز وعندما عاد كانت كارمن جالسةً على السَّرير، ابتسم وقال لها:

-صباح الخير، كيف حالك يا صغيرتي؟

-صباح الخير، الحمد لله أنا بخير.

شعرت بالخجل وخفضت رأسها نظرت إليه نظرة خاطفة، كان يعدُّ الطَّعام، ودّت أن تشكره لكنَّها خجلة.

نظر إليها فشخصت نظراته وتسمَّر في مكانه، تمتم بخفوت: إنّها هي، لم ينسَ وجهها أبداً ولن ينساه، هذه أوَّل مرَّة يتفرَّس في ملامحها، شعرٌ أسود فاحم وناعم ينسدل على كتفيها، وجنتان شاحبتان وعينان لوزيتان

خضراوتان وقد اسمرَّت بشرتها، لكنَّها قصيرة، في هذا العمر يجب أن تكون كبرت وتكون ب عمر أخته تقريباً لكن لا شكّ أنَّها هي.

داهمته الذِّكريات فهربت دمعة حارَّة من مقلتيه، قطعت كارمن حبل الأفكار بصوتٍ تشوبه نبرة الخجل:

-أنا أشكرك يا سيِّدي لقد أنقذت حياتي. لا أعرف ماذا أقول لك أنت سيِّد طيّب جدَّاً.

نبرتها صوتها وخجلها لا يدلَّان أنَّها شرّيرة تبدو طيِّبة وهي تضع قناع الوداعة. حاول طمأنة نفسه إنَّه شبهٌ، شبه ليس غير لكنَّه شبه كبير.

وضع أمامها خبزاً وحليباً:

-لا شكر على واجب هيَّا كلي لا بدَّ أنَّك جائعة يا....

-أدعى كارمن وأنت؟

-أنا عمَرْ.

-أنت عربيّ

-أجل من تونس.

.....

تأمّلت ريحان الصَّدفة الصَّغيرة وهي تسترجع صورة الفتاة التي تقاربها سنَّاً. أعطتها ريحان قلادتها فقامت هي بإعطائها صدفةً جميلة، قسمات وجهها

لطيفة ورائقة وكأنّ في عينيها البحر، شعرها الفاحم هو سواد الليل بعينه سحنتها اللطيفة تذكّرها بأعزّ صديقة. كايلا التي ماتت بسبب طيشها.

جلست على مقعدٍ خشبيّ في الحديقة كانت الشَّمس متوهِّجة في هذا الوقت من الظَّهيرة، شربت كوب الليمون المثلَّج الذي أعدَّته فاتن لها، ثمَّ جلست تقرأ كتاباً أنهت الكتاب عندما سمعت وقع خطوات خلف شجرة التُّفَّاح فقالت بحذر:

-من هناك؟

لم تلق إجابة، وبعد عدَّة ثواني ظهر من بين الأشجار شابٌّ أشقر فارع الطُّول ممتلئ الجسم وله عينان زرقاوان واسعتان بلون البحر، حدَّجها بنظرة متشكِّكة ثمَّ قال:

-أين كارمن؟

كان هذا بيير الأخ الأكبر ل كارمن، قالت ب هدوء:

-كارمن؟ لا أدري؟ لم أرها منذ أن أخذتها.

قال وابتسامة ساخرة ترتسم على ثغره:

-أنت تخفينها عنّي إذاً لقد جاءت وطلبت منك إخفاءها أليس كذلك؟

أجابت وهي تضبط أعصابها، هل يمازحها الآن؟:

-لا، لا صدِّقني لم أرها أبداً هل حدث لها مكروه؟

-حسناً لا تعترفي لكن إن لم ترسليها إلى البيت سأرفع عليك شكوى فحواها الاختطاف.

سرت رجفة في جسدها.

ماذا؟

اختطاف، هل يمزح معها أم أنَّ كارمن اختطفت، أو اختفت أو.. أو.. أو.....

استوقفته:

-يا سيِّد أين كارمن هل اختفت؟

نظر إليها بحنق:

-أنتِ ما زلت تنكرين، لن تستفيدي شيئاً.

-لا، لا أنا...

ذهب دون أن يستمع إليها.

ظلَّت واقفة مكانها والصَّدمة شلَّتها، صديقتها الصَّغيرة اختفت وشقيقها يتَّهمها بخطفها، ما الذي يحصل؟

.....

-أشكرك يا سيّد عمر على حسن الضِّيافة.

-عفواً، سأرافقك إلى المنزل حتى لا يتعرَّض لك أحد.

قالت خجلة:

-شكراً، شكراً لك.

ابتسم في ودّ، رنا إليها وكأنَّما تذكَّر شيئاً:

-صحيح نسيت أن أعطيك هذه.

أخرج من جيبه القلادة الذَّهبية التي أعطتها ريحان لها، رفعها أمام عينيه فأجفل، إنَّها... إنَّها قلادة أخته لا شكّ بدا مرعباً وهو يحدِّق في القلادة بشكلٍ مريب.

هزَّته كارمن بقوَّة حين لم يجبها:

-سيّد عمر؟ أنت بخير؟

رسم ابتسامة مزيَّفة على شفتيه وهو يقول:

-تفضَّلي، هيَّا بنا.

تحوَّلت أفكاره الطَّيّبة إلى مخطَّطات شرِّيرة مليئة بالحقد ومشاعر الانتقام، طوال الطَّريق وهو يفكِّر كيف ينتقم ووجد طريقة مناسبة، كما حدث قبل أعوام، لكن بقي لديه سؤال واحد ويقرَّر:

-هل لديك أخوة؟

أومأت برأسها وقالت:

-أجل، شقيق واحد اسمه بيير.

حدَّث نفسه ساخراً: بيير إذاً، لا مجال للشَّك الآن.

أخذها حديث عمر فشردت ولم تنتبه على الطريق استوقفته وقالت:

-سيّد عمر، هذا ليس هو الطَّريق أعتقد أنَّنا أخطأنا.

-لا تقلقي لقد أحضرتك إلى هنا لأريك شيئاً، دقائق ولن نتأخَّر.

صارت نبرته يشوبها شيء من الجفاء والعداء توتَّرت قليلاً ترى ما الذي حدث له؟

أشار إلى زقاقٍ ضيِّق وقال:

-هنا.

دخلت كارمن قبله تفحَّصت المكان لم ترَ شيئاً، سوا النّفايات وبقايا أشياء مكسورة ازدردت ريقها بتوتّر وقالت:

-عمر، لم أجد شيئاً.

عمر كان يبحث عن شيء يصلح لتنفيذ مخطَّطه الشرير، لمعت عيناه عندما رأى عصا خشبية ملقاة على الأرض.

لم تتلقَّ كارمن إجابة فعادت تردِّد بقلق:

-عمر؟ ... عمر؟

أحسَّت بوقع خطواته خلفها، فانفرجت أساريرها استدارت، لكنَّها فوجئت به على هذا الوضع، دفعها بقوَّة أرضاً فاصطدمت بالحائط وشعرت بألم فظيع في ظهرها، عيناه تتطاير شرراً إنَّه ليس عمر بالتَّأكيد، وجهه وملامحه الدَّقيقة قد تغيَّرت، عيناه البندقيَّتان صارتا كجمرتين مشتعلتين، صرخت في فزع:

-ما بك، كدت تقسم ظهري.

لم يجبها بل رفع عصا غليظة وهوى بها على رأس المسكينة التي أسرعت تبعد رأسها وتصرخ في جنون والدُّموع تتجمَّع في مقلتيها:

-عمر، ما بك أجبني هل جننت؟

لم ينبس ببنت شفة بل كان يهوي بالعصا على رأسها وهي تصرخ مستغيثة ومدركة أنَّه لا أحد في هذا المكان فهو بعيد عن المدينة، تعبت من الرّكض انهمرت العبرات دون استئذان فهو يكاد يقتلها.

تحرَّكت شفتاه بكلماتٌ غير مفهومة لتنطق ب:

-سأقتلك، كما قتلت أختي.

تناثرت دماء كارمن هنا وهناك، لم يقتلها شجَّ رأسها فقط وأفقدها الوعي فهو لم ينته بعد، حملها وكانت هامدة، وقد غطَّت الدماء كفَّيه وكتفيها ولطَّخت وجهها وامتزجت ب شعرها لكن ستغسلها مياه النَّهر، هكذا قال ساخراً.

بحث هنا وهناك لم يجد لها أيَّ أثر، أين اختفت؟ هل حصل لها مكروه؟ هل ماتت؟ أم اختطفت؟

كانت هذه الأسئلة تجتاح عقله وتنخر رأسه، انتزعه من حبل أفكاره صوت أنثوي، نظر في دهشة إليها كانت ريحان تقف أمامه على استحياء، لم تستطع أن تجلس وكارمن مفقودة بحثت عنه لتساعده.

ماذا هل جاءت لتعترف أين كارمن؟

عبق المكان رائحة الرَّيحان الأخضر، وكأنَّها ريحانةٌ تعبق المكان برائحتها العطرة، عمَّ المكان بجوٍّ هادئ تحرَّكت فيه المشاعر التي حبست طويلاً على الرُّغم من كونهما في أحد أزقَّة باريس،لكنَّ وجودها جعل للمكان رائحة الرَّيحان وكأنَّها اسم على مسمَّى.

لم يطل بهما هذا الشُّعور فقد كان البحث عن كارمن هو الأساس.

قال بيير ساخراً:

-ماذا؟ هل جئت لتعترفي أم لا؟

تجاهلت نبرته السَّاخرة وقالت بجدِّيَّة:

-يا سيّد هذا ليس وقت السُّخرية الأفضل لنا أن نبحث عنها بدلاً من إلقاء الترَّهات.

عقدت الصَّدمة لسانه. ماذا؟ إنَّها جادّة. هل هذه الفتاة اللطيفة والخجولة والضَّعيفة التي التقت بها كارمن، هزَّ كتفيه لا مبالياً وسبقها.

جابا شوارع باريس وأزقَّتها واختلجت المشاعر في نفسيهما، تارةً الفرح والمتعة بالقيام بهذه الرِّحلة، وتارةً بالخوف على كارمن، وتارةً بمنظر الأولاد الصِّغار الفقراء وهم يسيرون حفاة عراة ويمدُّن أياديهم للمارَّة الذين لا يبالون بهم، شعرت ريحان بالحزن يعتصر قلبها لهذا المشهد فكانت تضع قطع النُّقود في كفوف الأمَّهات والحلوى الملوَّنة في الكفوف الصَّغيرة وتربِّت على رؤوسهم، شعر بيير بالامتنان لها وأعجبه تصرُّفها.

انتصف النَّهار وقارب وقت الغروب، وصلا إلى الجسر وهو المكان الوحيد المتبقّي.

لم يكن هناك أحد سوا بعض الأطفال يلعبون أمام منازلهم، لكن بعد دقائق وحين همَّا بالانصراف شاهدا شابَّاً مقبلاً نحو الجسر دقَّق بيير النَّظر واقترب منه قليلاً فأجفل، إنّه يحمل كارمن وهي مضرَّجة بدمائها، صرخ صرخةً مدوّية بينما ارتجفت ريحان من الخوف:

-أبعد يدك عنهاااا.

نظر عمر إليه ولكن لم يرفّ له جفن، كان عقله مخدَّراً بفكرة الانتقام والثَّأر، كان يلقي بها كما ألقت من قبل ب أخته.

صحت كارمن شيئاً ف شيئاً وعندما تذكَّرت ما حصل ولمست رأسها فرأت الدماء وقد أغرقت ملابسها صاحت من فرط الخوف:

-عمر لا، ما.. ذا..

كاد يلقي بها لولا اندفاع بيير اختطافها من يده، غضب عمر بشدَّة كان على وشك الانتهاء لولا هذا الأحمق، صاح بحنق:

-أعدها إلي أتدافع عن مجرمة.

لم يردّ بيير بل أبقى كارمن مع ريحان التي أسرعت تمسح دماءها وتضمد جرحها بقطعة من ثوبها، وقف بيير وهو يستعدُّ للقتال.

وشمَّر عمر عن ساعديه ليخوض معركته ضدَّ هذا الأهوج.

قال عمر وهو يدور حول بيير:

-آها أنت بيير شقيق كايلا، أنا عمر لا شكَّ أنَّك تذكرني جيِّداً.

تسارعت دقَّات قلب ريحان وهي تحكم الضماد حول رأس كارمن، قال كايلا وعمر، أجل لقد قال كايلا واسمه عمر، ماذا يكون هذا؟

بيير!؟ اسم صديقتها كايلا وعمر هو شقيقها الأكبر الذي غادر المنزل بعد نجاتها من الغرق.

هل هي الآن تحلم، أيكون هو أو هي حقَّاً؟ كارمن هي كايلا؟؟

إنَّها تشبه كايلا شبهاً كبيراً لكن يوجد فارق سنتين أو أكثر في العمر.

اندفع عمر غاضباً نحو بيير وأسقطه على الأرض، ثمَّ جثم عليه وبدأ يسدّد اللكمات إلى وجهه وبيير يحرّك وجهه ويبعد يديه عنه.

ضربه ضربةً على رأسه أفقدنه توازنه وجعلته ينزف، فسدّد بيير لكمة له في بطنه وعلى وجهه، قال عمر وهو يمسح الدماء التي نزفت من فمه:

-سترى.

منظرهما يبعث الرعب في النفوس لم تحتمل ريحان ولا كارمن منظر الدِّماء وهي تتدفَّق ف قالت ريحان:

-توقَّفاا أرجوكما لماذا العراك؟؟

لم يلتفت أحد إليها بل لم يسمعها أحد الشَّباب تجمَّعوا ولم يجرؤ أحد على الاقتراب، ثمَّ انسحبوا معتقدين أنَّهما سيتوقَّفان.

قالت كارمن:

-لا أدري ما الذي حصل ل عمر لقد أنقذني من العصابة ثمَّ تغيَّر فجأة عندما رأى وجهي والقلادة.

ابتسمت ريحان، أدركت كلَّ شيء، فرفعت يدها بالقلادة وصاحت بأعلى صوت ليسمع الجميع:

-أنت، هل تريد هذه، رمتها تجاهه وأردفت: خذها ودعنا وشأننا، هذه قلادتي هديَّة من أمِّي الرَّاحلة يملك أخي مثلها... سالت الدّموع على خدَّيها وأكملت:

-لكنَّ أخي اختفى...

انهارت باكية، وكارمن تخفّف عنها.

ارتجَّ جسد عمر بقوة ما الذي يفعله؟ زلزلت الكلمات قلبه، هل هذه أخته ريحان، القلادة لها وليست لهذه الصَّغيرة، ما الذي فعله؟! أوشك أن يقتل نفساً بريئة ويريق دمها، أعمى الحقد بصيرته فلم يعد يبصر سوا الانتقام، خارت قواه لقد أخطأ وها هي دماؤه تلطّخ يديه مختلطةً بدماء كارمن.

صعق عندما رأى شخصاً يمسك بعنق ريحان ويضع نصل السِّكين عليها صرخ الرَّجل وكان هو زعيم عصابة القتل:

-هاتِ القلادة ونطلق سراح الفتاة وإلا.

مرَّر نصل السكين على رقبتها فأحدث جرحاً بسيطاً وسالت دماء ريحان واختلطت بالعبرات.

كارمن كانت متشبِّثة بأخيها الذي وقف عاجزاً.

صرخ الرَّجل مرَّة أخرى بصوتٍ أجشّ:

-هيَّا افعل وإلا قتلتها.

لم ينتبه الرَّجل إلى عمر الذي طعنه من الخلف وأنقذ ريحان من يديه، أفلتت المسكينة وهي ترتجف فالتقطها بيير وأخته ومسحا دماءها، أمَّا عمر ف اشتبك في صراعٍ عنيف مع العصابة بعد أن قتل زعيمهم.

بكت بشدَّة حينما رأت الأشرار يطرحون عمر أرضاً ف تسقط منه قلادة ذهبيَّة، أدركت أنَّه هو عمر شقيقها، ودَّت مساعدته لولا يد كارمن التي سحبتها لتهرب معهم.

هي الآن فهمت كلَّ شيء من هو ومن كارمن ولماذا حاول قتلها، إنَّه ينتقم لها، وكارمن هي شقيقة صديقتها كايلا الصُّغرى.

.....

سمعت شهقاتِ وأنيناً مكتوماً، استيقظت من نومها، كانت السَّاعة تقارب الثالثة صباحاً، من يبكي في هذا الوقت، ذهب إلى الغرفة المضاءة، غرفة ريحان، فرأتها تبكي وتشهق ولم تنم بعد، دخلت وقالت لها:

-ريحان لماذا تبكين؟

كفكفت ريحان دموعها وقالت:

-لا.. لا شيء يا كارمن.. لا شيء.

-أنت تبكين، ما بك؟

تجاهلت ريحان سؤالها وقالت بجدِّية:

-كارمن منذ متى تعرفين عمر؟

استغربت من سؤالها المباغت، هزَّت كتفيها وقالت لا مبالية:

-لقد أنقذني من أيدي العصابة رأيته بجانب المخبز وكان بيته قريباً من هناك، كان طيِّباً جدَّاً معي، ولكنَّه تغيَّر بعدها، هذا كلُّ شيء.

لكن لماذا تسألين؟

-هكذا إذاً، لا شيء وددت معرفة سرِّ غضبه هذا.

لكنَّها في قرارة نفسها كانت تدرك لماذا.

-كارمن هيَّا عودي إلى غرفتك ولا تقلقي.

أجابت كارمن بلا اقتناع:

-حسناً، تصبحين على خير.

تأكَّدت من خروج كارمن ثمَّ أسرعت تغادر الغرفة، دون أن تنتبه للصَّغيرة التي لحقت بها.

.....

ذهبت إلى حيث الجسر، وقفت في الظَّلام -على بعد خطوتين- من المقعد الخشبيّ، وضوء القمر يعكس ظلَّ جسدٍ هزيل يئنُّ بخفوت.

هرولت إليه وهي تكفكف دموعها، قالت بصوتٍ مخنوق:

-أنتَ.. أنتَ بخير؟

أجابها والدموع تلمع في عينيه، وكأنَّها لآلئ:

-هذه أنت؟ أجاب سؤالها: أجل بخير والحمد لله.

اقتربت ريحان وقالت كلماتٍ بدت وكأنَّها:

-عمر أخي! اشتقت إليك.

علا صوتها وهي تقول:

-هل تعرف من أنا؟

ارتسمت شبه ابتسامة على ثغره وسقطت دمعة حارَّة على وجنته:

-ربَّما، حين علمت أنَّك صاحبة القلادة ظننت أنَّك أختي، التي اعتقدت أنَّها ماتت.

-حسناً؟ أنا صاحبة القلادة، هل أنت عمر حقَّاً؟ أنت أخي؟

قال وهو يحاول الوقوف:

-نعم أنا هو عمر الذي تحوَّل إلى قاتل وحاول الانتقام من كارمن لأخته، تنهَّد بحرقة: وقد كان مخطئاً.

ركضت إليه وارتمت في حضنه وهي تبكي وتشهق في صوت مرتفع، لم تستطع كبح دموعها ومشاعرها وشوقها، أنَّه شقيقها الذي انتظرنه طويلاً ظنَّت أنَّه مات وها هو يظهر وقد اشتاقت إليه كثيراً.

وهو كان يضمُّها بقوَّة إليه ويربِّت على رأسها.

بعد دقائق من البكاء والعناق، جلسا جنباً إلى جنب على المقعد.

كان التَّعب الشَّديد بادياً عليه وهو يقول بصوتٍ ثقيل:

-أتعرفين؟ كايلا وكارمن متشابهتان وكأنَّهما توءمتان لكن مع فارق في العمر، لا بدَّ أنَّ كارمن شقيقة كايلا التي حدَّثتنا عنها.

أومأت ريحان موفقة وتابعت:

-أجل هما شقيقتان ومتشابهتان أيقنت ذلك الآن ف بيير هو شقيق كايلا، لكن لماذا تنتقم منهما؟ ما الذي فعلت؟ لماذا يا أخي؟

عاد بذاكرته إلى الوراء عشر سنوات وقال:

-في ذلك اليوم عندما جئت لأخذك حيث الجسر أنت وكايلا لم أرَ أحداً هناك، انتظرت قليلاً دون فائدة، ولكن ظهر لي شابٌّ وأخبرني أنَّه رآكما تلعبان ثمَّ تشاجرتما فدفعتك كايلا وسقطت وهربت هي.

صاحت ريحان نافية:

-لا.. لا أبداً، لا بدَّ أنَّه هو الرَّجل الذي كذب عليّ وأخبرني أنَّ دميتي فوق السُّور فتساعدنا أنا وكايلا على إحضارها لكن تعثَّرنا وسقطنا معاً.

أردفت وهي تبكي بصمت:

-لقد نبَّهتني كايلا لكنِّي لم أستمع إليها فسقطنا وماتت هي بسبب طيشي.

بحثت عنك وعن المربّية وعن كايلا، أخبروني أنَّهم وجدوا جثَّة كايلا على الضّفة، فتألَّمت كثيراً، وحزنت عندما تركت البيت للبحث عنّي ولم تعد أبداً فظننت أنَّك متّ أو اختفيت.

مسح دموعها بيديه ونظر إليها:

-كنت أبحث عنك، عن كايلا، عن أي شيء يوصلني إليك، وعندما رأيت كايلا/كارمن اشتعلت ثورة الغضب في قلبي وقرَّرت الانتقام.

أردف بصوتٍ حزين:

-كانت لطيفة تلك الصَّغيرة ترى هل تسامحني بعد كلِّ ما فعلته بها؟

من بعيد كانت كارمن تراقب وتسمع وتبكي، إذاً ريحان هي صديقة أختها كايلا المتوفَّاة وعمر شقيق ريحان الغائب، بالتَّأكيد أسامحه: هكذا همست لنفسها، فهو لم يقصد.

-آآآآآآآآآآه.

تعالت صرخات ألم إنَّه عمر يصرخ ويتألَّم.

وقفت ريحان في فزع وهي تراقب الدَّم المتدفِّق على المقعد.

-عمر أنت تنزف.

كان ينزف بشدَّة وذلك بسبب طعنة في ظهره تعرَّض إليها عندما قاتل العصابة، لم تنتظر ريحان توقُّف سيل الدِّماء، بل قالت وهي تسنده إلى المقعد:

-انتظر قليلاً يا أخي سأحضر طبيباً.

لكنَّه أوقفها بإشارة منه وقال بصوت واهن:

-ريحان، لا لا تذهبي.

همس لنفسه: إنَّها النِهاية أنا أشعر بذلك.

سمعت ريحان كلماته وقالت وعبراتها تغمر وجهها:

-لا، لا تقل هذا سأذهب لا تقل هذا.

لكنَّه سحبها بقوَّة قال وهو يتنفَّس ببطء وابتسامة حالمة عذبة ارتسمت على شفتيه:

-لا يا أختي، انتبهي على نفسك، ابقي قويَّة ولا تتضعفي أبداً، واعلمي أنِّي سعيدٌ جدَّاً برؤيتك... يا أخ.. تي.

قال كلماته الأخيرة ولفظ أنفاسه الأخيرة، أغمض عينيه وتوقَّف كلُّ شيء حتَّى قلب ريحان.

تهاوت على المقعد وهزَته بعنف ودموعها أغرقتها:

-لا استيقظ أرجوك، لا تتركني وحيدة أرجوك.

وصل الطّبيب الذي أحضره بيير وأخته ونُقل جسد عمر إلى المستشفى.

وقف الطَّبيب وحدَّق بالعيون التي تنتظر ردَّه، هزَّ رأسه نافياً، وتمتم بكلمات عزاء وترك الغرفة في وجومٍ غريب، انهارت ريحان على الأرض، واستها كارمن وربَّتت على كتفها وهمست لها:

-اهدأي ريحان. سيكون بخير إنَّه بين يدي الله الآن.

مات عمر... مات بهدوء، عاد بعد فراق دام لحظات، ثمَّ رحل إلى الأبد.

يعود للحظات، ويرحل بهدوء تام.

.....

أغمي على ريحان من فرط البكاء.

وبقيت كارمن معها، بينما ذهب بيير ليساعد في مراسم الدَّفن.

وودَّعت العيون جثمان عمر وهي تذرف الدَّمع بسخاء.

.....

جلست على الشُّرفة وهي تحتضن طفلها الصَّغير وتمسِّد شعر النَّاعم، وتتأمَّل عيناه البندقيَّتان، يشبه خاله الرَّاحل، أحضرت صورته وتأمَّلتها مرَّ عشر سنوات على رحيله، نظر إليها طفلها وقال ببراءة:

-ماما من هذا الذي في الصُّرة؟

تنهَّدت وقالت:

-هذا؟ هذا عمر يا صغيري.

-عمر؟ أنا عمر.

-يا حبيبي هذا عمر خالك، أخي وهو يشبهك كثيراً أليس كذلك؟

فكَّر عمر الصَّغير قليلاً ثمَّ هتف:

-نعم، ولكن أين هو؟ أنا لم أره من قبل.

مسحت رأسه وضمَّته إليها بقوَّة، وقاومت الدُّموع، أجابته في صوت مرير:

-رحل يا صغيري لقد رحل، أتحبُّ أن نزوره.

لم يجبها عمر بل أسرع ليمسك برجل والده الذي صاح فيه:

-ابتعد يا ولد وإلَّا سكبت القهوة عليك.

أطلق الولد ضحكةً جذلة، ووضع بيير كويب القهوة على الطَّاولة فلمح صورة عمر الرَّاحل، قال محاولاً التَّخفيف عنها:

-هوِّني عليك لا داعي لاسترجاع الذّكريات المريرة.

تنهَّد وتابع:

-كانت أيَّاماً مريرة فعلاً، رحمه الله.

-رحمه الله

ردَّد الصَّغير وراءهما:

-رحمه الله.

ربَّت بيير على رأسه ثمَّ قال وهو يسترجع حديثة الليلة الماضية مع أخته:

-صحيح نسيت إخباركما ستأتي العمَّة كارمن هذا المساء من نيويورك، لديها إجازة.

صفَّق الصَّبيّ بحرارة وهتف في مرح، كان يحبُّ كارمن كثيراً فهي تحضر له الحلوى والهدايا، أمَّا ريحان فقالت وهي تقف:

-حقَّاً إنَّها مفاجأة، هيَّا يجب أن نجهِّز لاستقبال الضَّيفة، لم يبق وقت.

.....

أغلقت دفتر ذكرياتها إلى الأبد وختمت بهذه الكلمات:

بعضنا يمرُّ بأحداث موجعة تترك جرحاً كبيراً في القلب لا يلتئم أبداً، موتك ترك في قلبي جرحاً كبيراً جدَّاً.

(تمَّت والحمد لله)

رواية

إسلام صادق

ظهر فجأةً.. ثمّ اختفى

سألتني في ليلة باردة أتدركين معنى الدفء.

أجبتها: نعم إنَّها المدفأة.

فضحكت.

اليوم أدركت ما تقصده الدفء كان حضنها.